السنة التاسعة والسبعون بعد المئة

فيها لَمَّا عاد الفضلُ بن يحيى من خراسان ولَّى هارونُ خراسان منصورَ بن يزيد بن منصور الحميريّ.

وعزل هارون محمدَ بن خالد بن بَرْمك عن حجابته، وقلَّدها الفضل بن الربيع.

وفيها رجع الوليد الشاري من إرمينية إلى الجزيرة، واشتدت شوكته، وكَثُر تبعُه، ومال الناس إليه، وخافَ هارون منه، وجهَّز إليه الجيوشَ مع يزيد بن مزيد الشيباني، وتقاتلا، فبيَّتهُ يزيد على غرَّةٍ فقتلَه وقتلَ معظم أصحابه، وانهزم الباقون، وكان الوليد من الزهَّاد شجاعاً جواداً، فقالت أخته الفارعة ترثيه ـ وقيل اسمها ليلى ـ : [من الطويل]

أيا شجرَ الخابور مالك مُورقاً ... كأنَّك لم تجزعْ على ابنِ طريفِ
فتًى لا يحبُّ الزادَ إلَّا من التُّقَى ... ولا المالَ إلَّا من قناً وسيوفِ
خفيفٌ على ظهر الجواد إذا غدا ... وليسَ على أعدائِه بخفيفِ[1]

وكان هارون قد خاف منه خوفاً شديداً، ونذرَ إن نجَّاه اللهُ منه أن يعتمرَ في تلك السنة، فاعتمرَ في شهر رمضان شكراً لله تعالى، فلمَّا قَضى عمرتَه انصرفَ إلى المدينة فأقام بها إلى زمان الحجّ، وفرَّق في الحرمين أموالاً، ثم حجَّ بالناسِ وخرج ماشياً من مكَّة إلى منى وعرفات، ونسكَ المناسك كلَّها ماشياً.

مالك بن أنس

ابن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث[2] بن غَيْمَان بن خُثَيل بن عمرو بن الحارث، وهو ذو أصبح بن حِمير، وعِدادُه في بني تَيْم بن مُرَّة من قريش إلى عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيميّ، وكنيتُه أبو عبد الله، إمامُ دار الهجرة، من الطبقة السادسة من أهل المدينة.

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٢٦١ دون البيت الأخير، وانظر القصيدة بتمامها في العقد الفريد ٣/ ٢٦٩.

(٢) في (خ): بن الحارث بن عمرو. والمثبت من طبقات ابن سعد ٧/ ٥٧٠، وتهذيب الكمال ٢٧/ ٩١ ـ ٩٢.

قال محمد بن عمر: سمعتُ مالكَ بن أنس يقول: قد يكونُ الحملُ ثلاثَ سنين، وقد حُمِل ببعض الناس ثلاثَ سنين، يعني نفسه[١].

ذكر صفته:

كان طويلاً عظيمَ الهامة، أصلع أبيضَ الرأس واللحية، شديد البياض إلى الشُّقرة، وكان لباسُه الثياب العدنيَّة الجياد، وكان يكرهُ حلق الشارب، ويراه من المُثَل، وكان نقش خاتمه: حسبي الله ونعم الوكيل، فقيل له في ذلك، فقال: سمعتُ الله يقول عقيب هذه الآية: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

وكان يتختَّم في يساره، ويحوِّلُه إلى يمينه حين يتوضَّأ من الغائط والبول، وكان فصُّه حجراً أسود، ونقشُه سطران.

وكان إذا دخلَ بيتَه أدخل رجلَه وقال: ما شاء الله، فقيل له في ذلك فقال: سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٣٩] وجنته بيته.

وقال: ما أفتيتُ حتَّى شهدَ لي سبعون أنِّي أهلٌ لذلك، منهم ربيعة ويحيى بن سعيد[٢]، قيل: فلو نهوك، قال: كنتُ أنتهي، لا ينبغي للرجل أنْ يرى نفسَه أهلاً لشيءٍ حتى يسألَ من هو أعلم منه.

وقال معن بن عيسى: كان مالك إذا أرادَ أن يحدِّثَ بحديث رسول الله ﷺ اغتسلَ وتبخَّرَ وتطيَّبَ، فإذا رفعَ أحدٌ صوتَه عنده قال: اغضض من صوتك؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، فمن رفعَ صوتَه عند حديث النبيِّ ﷺ، فكأنمَّا رفعَ صوتَه فوق صوتِ رسول الله ﷺ.

وقال ابن مهدي: سأل رجلٌ مالكاً عن مسألة، فقال: لا أحسنُها، فقال الرجل: قد ضَرَبْتُ إليك من كذا وكذا لأسألكَ عنها، فقال مالك: إذا رجعتَ إلى أهلك ومكانك فأخبرهم أنِّي قد قلتُ لك: ما أحسنُها.

وقال عبد الله بن المبارك: ما رأيتُ رجلاً ارتفعَ مثل مالك بن أنس، ليس له كثيرُ صلاةٍ ولا صيام، إلَّا أن يكون له سريرة[٣] صالحة.

---

(١) طبقات ابن سعد ٧/ ٥٧٠.

(٢) في (خ): يحيى وابن سعيد. والمثبت من حلية الأولياء ٦/ ٣١٦.

(٣) في (خ): شهرة. والمثبت من حلية الأولياء ٦/ ٣٣٠، والمنتظم ٩/ ٤٤.

وقال محمد بن عمر: لما دُعِيَ مالك بن أنس، وشُوور، وسُمِعَ منه، وقُبِلَ قولُه، شَنِفَ الناس له، وحسدُوه، وبَغَوْهُ بكلِّ شيء، فلمَّا وَلِيَ جعفرُ بن سليمان على المدينة سَعَوْا به إليه، وكَثَّروا عليه عنده، وقالوا: إنَّه لا يرى أيمانَ بيعتكم هذه بشيء، وهو يأخذُ بحديثٍ رواه عن ثابت الأحنف في طلاق المكره أنَّه لا يجوز، فدعا جعفر بمالك، وقد غضب، واحتجَّ عليه بما رُقِيَ إليه عنه، ثم جرَّدَه ومدَّه وضربَه بالسياط، ومُدَّت يدُه حتى انخلَعَ كتفاه، وارتُكِبَ منه أمرٌ عظيم، فوالله ما زال مالك بعد ذلك في رفعةٍ من الناس، وعلوٍّ من قدره، وإعظام الناس له، وكأنَّما كانت تلك السِّياطُ التي ضُرِبها حُلِيًّا حُلِّيَ به.

وكان مالك يأتي إلى المسجد، ويشهدُ الصلوات والجمعة والجنائزَ، ويعودُ المرضى، ويقضي الحقوقَ، ويجتمعُ إليه أصحابُه في المسجد، ثم تركَ الجلوس في المسجد، وكان يصلِّي ثم ينصرفُ إلى منزله، وترك شهود الجنائز، فكان يأتي أصحابَها فيعزِّيهم، ثم تركَ ذلك كلَّه، فلم يكن يشهدُ الصلوات في المسجد ولا الجمعة، ولا يأتي أحداً يعزِّيه، ولا يقضي له حقًّا، واحتملَ الناسُ ذلك كلَّه له، وكانوا أرغبَ ما كانوا فيه وأشدَّه له تعظيماً حتى مات، وكان إذا تكلَّم في ذلك يقول: ليس كلُّ الناسِ يقدرُ أن يتكلَّم بعذرِه.

وكان يجلسُ في منزله على ضجاعٍ له، ونمارق مطروحة يمنةً ويسرةً في سائر البيت لمن يأتيه من قريش والأنصار والناس، وكان مجلسُه مجلسَ وَقارٍ وحِلْم، وكان مَهيباً نبيلاً، ليس في مجلسه شيءٌ من المراءِ واللغَطِ، ولا رفع صوت.

وكان له كاتبٌ اسمُه حبيب يقرأ عليه الحديث، وكان قد نَسخَ كتبَه، فكان يقرأُ للجماعة، وليس أحدٌ ممن يحضرُه يدنو ولا ينظر في كتابه ولا يستفهم؛ هيبةً لمالك[1].

ولَمَّا خرج محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة لزمَ مالك منزله، فلم يخرج منه حتَّى قُتِل محمّد.

وقال زيد بن داود: رأيتُ في المنام كأنَّ القبرَ انفرجَ، وإذا رسول الله ﷺ قاعد،

(١) طبقات ابن سعد ٧/ ٥٧٤ ـ ٥٧٥.

والناس مُنْقَصِفون[1] له، فصاح صائحٌ: أين مالك بن أنس؟ فجاءَ مالك حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فأعطاه شيئاً، فقال: اقسِمْ هذا على الناس، فخرجَ مالك يَقْسِمُه على الناس، فإذا هو مِسْكٌ يعطيهم إيَّاه.

وقلَّ أنْ سُئِل مالكٌ عن شيءٍ إلَّا قال قبل أن يتكلَّم: ما شاء الله. قالوا: فلو قال هذا في أخفى شيء لهُدِيَ فيه إلى الصواب.

وقال مالك: لما حجَّ المنصورُ دعاني فدخلتُ عليه، فحادثتُه، وسألني فأجبتُه، فقال: إنِّي قد عزمتُ أن آمر بكتبِك هذه التي وضعتها ـ يعني «الموطأ» ـ فتنسخَ نُسخاً، فأبعثَ إلى كل مصرٍ من أمصار المسلمين منها بنسخة، وآمرهم أن يعملوا بما فيها، ولا يتعدونه إلى غيره، ويَدَعُوا ما سوى ذلك من هذا العلم المُحْدَث؛ فإنِّي رأيتُ أصلَ العلم روايةَ أهل المدينة وعلمهم، فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا؛ فإن الناسَ قد سبقتْ إليهم أقاويل، وسمعُوا أحاديثَ ورَووا روايات، وأخذَ كلُّ قومٍ ما سبقَ إليهم، وعَمِلُوا به، ودانوا به من اختلافِ النَّاس، وإنَّ ردَّهم عمَّا اعتقدوه شديد، فدعِ الناسَ وما هُم عليه، فقال: لو طاوَعْتَني على ذلك لفعلتُه وأمرتُ به.

وقال مالك: ليس العلم بكثرة الرواية، ولكنَّه نورٌ يضعُه الله في القلب.

ذكر وفاته:

قال إسماعيل بن عبد الله بن أبي أويس: اشتكى مالك أياماً يسيرةً[2]، فسألتُ بعضَ أهلنا عمَّا قال عند الموت، فقال: تشهد، ثمَّ قال: لله الأمر من قبلُ ومن بعد، وتوفِّي صبيحة أربع عشرة من شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومئة، وصلى عليه عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس، وهو ابن زينب بنت سليمان ابن عليّ، كان يعرف بأمِّه، ودفنَ بالبقيع، وكان يوم ماتَ ابنَ خمسٍ وثمانين سنة، وقيل: مات في صفر وقال معن بن عيسى: رأيتُ الفسطاط على قبر مالك بن أنس. وقيل: صلَّى عليه ابنُ أبي ذئب، ومات عن ستٍّ وثمانين سنة.

---

(١) أي: مزدحمون كأن بعضهم يقصف بعضاً لفرط الزحام. انظر القاموس (قصف).

(٢) في (خ): كثيرة. والمثبت من طبقات ابن سعد ٧/ ٥٧٥، والمنتظم ٩/ ٤٥.

أسندَ مالك عن أئمَّة التابعين، منهم الحسن وابن سيرين[١] والزهريّ والثوريّ[٢] وخلقٌ كثير، وروى عنه الأئمَّةُ الشافعيُّ وابنُ المبارك وابن وهب وغيرهم، ومعظمُ مذهبِ الشافعيِّ وأقواله القديمة عنه.

واتَّفقوا على صدقِه وثقته وأمانته، فقال حنبل بن إسحاق: سألت أبا عبد الله أحمد ابن حنبل عن مالك، فقال: سيِّدٌ من ساداتِ أهلِ العلم، إمامٌ في الحديث وفي الفقه، ومن مِثْلُ مالك متبعٌ لآثار السلف مع عقلٍ وأدب.

وقال ابن سعد: كانَ مالك ثقةً مأموناً ثبتاً ورعاً فقيهاً عالماً حجة[٣].

(١) لم أقف على رواية مالك عنهما. فالله أعلم.

(٢) ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء ٨/ ٥٢ أن الثوري ممن روى عن مالك من أقرانه، ومات قبله. وانظر تهذيب الكمال ٢٧/ ١٠٨.

(٣) طبقات ابن سعد ٧/ ٥٧٥، وجاء بعدها في (خ): آخر الجزء السابع ولله الحمد والمنة، يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثامن، أوله: السنة الثمانون بعد المئة، فيها هاجت الفتنة في الشام. غفر الله لكاتبه ولمالكه وللناظر فيه، ولجميع المسلمين.
كتبه علي بن عيسى المرحومي، غفر الله له جميع ذنوبه.